مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

مجلة علمية متخصصة تصدر عن الجمعية الجغرافية الليبية



العدد الخامس

2016

مجلـــة

الجمعية الجغرافية الليبية

العدد الخامس . 2016م

مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

البحوث والمقالات الواردة في هذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي مجلة الجمعية الجغرافية الليبية

تتم المراسلات والمشاركات على العناوين التالية:

- مكتب الجمعية الجغرافية الليبية بمدينة الزاوية .
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الغربية، طرابلس.
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الجنوبية، سبها.
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الوسطى، سرت
- إدارة فرع الجمعية بالمنطقة الشرقية، بنغازي

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

دار الكتب الوطنية

بنغـازي ـ ليبيا

هاتف : 9097074 - 9096379 - 9090509

بريد مصور : 9097073

البريد الإلكتروني :

nat_lib_libya@hotmial.com

رقم الإيداع : / 2009

ردمك - – ISBN 978 – 9959 – 852

التنفيذ الفني / أكرم محمود جودة

تصميم الغلاف / إياد أحمد جودة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يسَّر الله سبحانه وتعالى لبلادنا أن تتغلب على القوة الغاشمة التي كانت تشدها إلى الوراء وتعرقل مسيرة التطور فيها، وقد دفع الشعب الليبي في سبيل ذلك ثمناً غالياً من الدماء والأشلاء والأرواح الزكية ومن الدمار والخراب لكل مناحي الحياة، ولكن كل ذلك لا يثنينا عن مواصلة التقدم والدفع بعجلة التطور إلى الأمام. لقد أثبت الشعب الليبي دائماً أنه شعب حي قادر على مواصلة بناء الحياة من جديد بعد كل نكسة وفي أعقاب كل كبوة.

كابدت بلادنا الدمار والمعتقلات والموت في مكافحة الاستعمار الإيطالي، ثم جعلنا ذلك الاستعمار نعاني ويلات حربين عالميتين لا ناقة لنا فيهما ولا جمل. وتحرر الشعب الليبي من ربقة الاستعمار وخرج من تحت ركام حربين عالميتين يبني البلاد بجهد جبار وعزم لا يلين، ولكن القدر رماه بانقلاب عسكري أفضى إلى حكم دكتاتوري ظالم مستهتر هدم ما بناه الشعب وأتى على الأخضر واليابس، وانتفض الشعب الليبي من جديد باذلاً النفس والنفيس ليقذف بذلك الحكم المتسلط إلى مزبلة التاريخ، وما زال يعاني اليوم من مخلفات ذلك الحكم الغاشم وسلبياته، وينظر إلينا الناس اليوم بين شامت فرح بما نعاني وبين مشفق يرنوا إلينا بنظرة متعاطفة وقلب واجف يرجو لنا النجاة من الأحداث التي تحاول أن تدفع بنا إلى مصير مجهول. ولكن بوارق الأمل تلوح بين الفينة والفينة نابعة من عواطف وتصرفات الوطنيين من الليبيين ذوي المعدن النقي والإيمان القوي والعزم الأبي، ستبعث فينا تلك الومضات روح الأمل بالمستقبل والثقة بالنفس والتضحية في سبيل الوطن وعزة المواطن. لذلك نقف اليوم واثقين بأننا سنتمكن من بناء وطننا والدفع به

إلى التألق والأمان والعزة، وستتوالى أجيال من أبناء هذا الوطن تصحح ما فسد وتسترجع ما سلب وتبني ما تهدم.

تنظر الجمعية الجغرافية الليبية لجميع فروعها ومنتسبيها إلى المستقبل بثقة وأمل، وسنكون مستعدين لمد أيدنا متكاتفين مع أبناء هذا الوطن المخلصين لنسهم معا في بناء المستقبل المشرق، مؤتمراتنا العلمية الجغرافية تتواصل، وإنتاجنا العلمي يزداد عمقاً وانتشاراً، وها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم العدد الخامس من هذه المجلة، وهو الإصدار الثاني بعد انبلاج ثورة 17 فبراير، وقد عقدنا العزم على مواصلة مسيرة هذه المجلة لتسهم بفاعلية في نشر العلم والثقافة، ولتتيح مجالاً آمناً للجغرافيين الليبيين لنشر إنتاجهم العلمي دون قيود، نعمل من أجل تحقيق حرية البحث والدراسة والإبداع في مجال علم الجغرافيا، وسنسعى دائماً إلى الأفضل، والله من وراء القصد.

جُهّز هذا العدد ليصدر خلال عام 2013 ميلادية، ولكن الظروف الصعبة والأحداث المؤلمة التي تمر بها ليبيا بصفة عامة وبنغازي بصفة خاصة، حالت دون إصداره في موعده.. نرجو من القارئ الكريم ومن السادة الذين أسهموا بالكتابة في هذا العدد أن يتقبلوا خالص اعتذارنا على هذا التأخير الخارج عن إرادتنا، ونبتهل إلى العلي القدير أن ينقذ بلادنا الحبيبة من كل مكروه، وأن يقيها شر الفتن وعبث العابثين، ويسبغ على ليبيا الأمن والأمان والاستقرار ويحفظها ويصونها ويبقيها حرة أبية.

أ. د. منصور محمد الكيخيا
رئيس الجمعية الجغرافية الليبية

الافتتاحية

هذا هو الاصدار الخامس من مجلة الجمعية الجغرافية الليبية يرى النور ويصل إلى أيدي القراء ـــ خاصة الجغرافيين منهم ـــ وهو يحوي عناوين متنوعة من شتى العلوم الجغرافية لدراسات كتبت بأقلام إخوة لهم مقدرة وكفاءة فيما كتبوا عنه.

ونحن نعتبر هذا العدد محاولة جادة لرسم طريق المستقبل، فدائرة تعاون الجغرافيين الليبيين مع هيئة تحرير هذه المجلة بدأت تتسع، واسهاماتهم بدأت تتنوع وباتت واقعاً يدركه الجميع، مما يدفع بي إلى الشد على الأيدي آملاً بذل المزيد من التعاون مع هيئة التحرير حتى نسهم جميعاً في حث الخطى للدفع قدماً بهذه المطبوعة الثقافية العلمية لبلوغ بر الأمان ومواصلة السير بثبات في سبيل التطور والنجاح، ونحن نختزن استعداداً يوفر لهذا الوطن انجاز كامل أمانيه، ودمتم بخير.

أ.د. الهادي مصطفى بولقمة

رئيس التحرير

محتويات العدد

الهوية الليبية والوحدة الوطنية في إطار التاريخ والجغرافيا[1]

أ.د. منصور محمد البابور

قسم الجغرافيا، جامعة بنغازي (بنغازي)

مقدمة

تتضمن الورقة أفكاراً نشرتها في عدد من المقالات باللغة الإنجليزيــة[2] فــي الشهور الأولى من عام 2011، وهي أفكار مُستوحاة من ثورة فبراير المباركة التي استعاد فيها الشعب الليبي المجاهد هُويته الأصيلة التي سُلبت غدراً ردَحاً من الزمن، وبرهن من خلالها على صلابته المتأصلة التي أدهشت العالم أجمع وجعلت أناسه يرجعون إلى كتب التاريخ لمعرفة المزيد عــن هــذا الــشعب الصغير في عدده، الكبير في أفعاله. سوف أتحدث أولا عن الهُويّة والوحــدة الوطنية، ثم أنتقل لتقديم لمحة عن جغرافية ليبيا ونظامها الحضري اللذين أسّسا للهوية الوطنية ورسّخا وحدة التراب الليبي، وأختم بنظرة سريعة للــصحراء التي تشكل بدورها ركناً أساسياً من شخصية ليبيا. ينبني حِجاجي هنــا علــى فكرة أن ليبيا أمة من المدن وليست أمة من القبائل، وأن النظام الحضري الذي هو بالضرورة نظام مكاني/ اجتماعي اقتصادي متغلغل مُنذ القدم في التــراب الليبي من أقصاه إلى أقصاه، وأن هُوية ليبيا ووحدتها، النابعتين من تاريخهــا وجغرافيتها، يحركان هذا النظام ويتحركان به. طبعاً، سوف أتــرك المحــرِّك الأعظم لهُويّة ليبيا ووحدتها، ألا وهو لغة القرآن الكريم، للمتخصصين من بين الأساتذة الأفاضل في هذا الجمع الكريم.

لقد انتشر كثير من سوء الفهم والأفكار النمطية فيما يقال ويكتب حول جملة من المخاطر التي تهدد الوحدة الوطنية الليبية، بسبب طبيعة البلاد الجغرافية، وتركيبتها القبلية، وتباين أقاليمها، وكذلك بسبب عدم التوازن في توزيع السكان. بل إن دراسة نشرت مؤخراً ربطت بين ما يوصف "بثنائية التركيبة السكانية" وبعض مظاهر البيئة الطبيعية. وللأسف إن هؤلاء الذين يتجهون لتبني مثل هذه اللغة ويكررونها في الحديث عن ليبيا، إنما يتجاهلون تاريخها السياسي والاجتماعي والحضري الطويل، كما يتجاهلون أيضاً جغرافيتها الطبيعية والتاريخية والسياسية.

وكَيْلا نسمح لبعض الأفكار التي عفا عليها الزمن حول حتمية بيئية مزعومة بأن تصرف انتباهنا، من المهم الإشارة إلى أن العوامل الجغرافية ليست طبيعية فقط، بل هي اقتصادية واجتماعية وثقافية كذلك، بل وإنسانية بالدرجة الأولى، إذ لا شك أن هناك فيضاً من المعاني والدلالات يُسبغها المنتمون على المكان ما يؤكِّد شخصيته ويُبرز فرادته. ومن جهة أخرى ينبغي أن نضيف أن المسافة الجغرافية المطلقة وحدها لا تجدي كثيراً في تفسير الروابط الفعلية الموجودة بين أجزاء منطقة معينة، بل يجب الاسترشاد بدور المسافة الوظيفية الأكثر أهمية في هذه الحالة.

ما أود التأكيد عليه هو أن وحدة البلاد نجدها في جغرافيتها وفي تاريخها. فعبر آلاف السنين كانت الأرض التي أصبحت تعرف باسم ليبيا في العصور الحديثة مسرحاً لعمليات هائلة من تفاعل الحضارات وتلاقي الجماعات الأصلية من السكان، الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في تنوعها الثقافي، الذي يبدو أكثر وضوحاً في التجمعات الحضرية. فقد شكلت هذه التجمعات

مراكز عمرانية ضمن شبكة تكونت على أساس جغرافي منذ أيام الرومـــان، عندما باتت هذه الرقعة من الأرض معترفاً بها وحدةً جغرافية مستقلة. ومن ثَمَّ فمن المسلم به أن جذور نمط ليبيا المكاني الحالي يجب أن ينظر إليها في عمق تاريخها العمراني، وليس من خلال بعــض الأفكـــار المــسبقة، أو الحجـــج الافتراضية.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا حدث للهوية الوطنية للشعب الليبي زمن الاحتلال الإيطالي الغاشم وفترة حكم الاستبداد التي أطاحت بهـــا ثورة الشعب المجيدة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منـــا فهمـــاً عميقـــاً لتطلعات الشعب الليبي خلال هاتين الفترتين. فإذا أخذنا في الاعتبار أن الفترة الأولى كانت تتسم بسيادة نمط الاقتصاد الريفي الرعوي، وأن الفترة الثانية قد اتسمت بسيادة غالبة للنمط الحضري، فإننا نلاحظ أن السمات الجوهرية لكلتـــا الفترتين تمثلت في مسألة البحث عن هوية ضائعة والأمل في مستقبل أفضل.

إن التاريخ الشفهي والمكتوب لنضال الشعب الليبي ينبئنا بأن الحفـــاظ على الوحدة الوطنية كان أمراً جوهرياً من أجل الحفاظ على الهوية الوطنيـــة. وتعد الملحمة الشعرية الشهيرة: "ما بي مرض غير حبس العقيلـــة" نموذجـــاً كلاسيكياً لوصف المآسي والفظائع التي قاساها الليبيون إبان نظالهم البطـــولي ضد الاحتلال الإيطالي، ومع ذلك فهي تعبر عن معاني اللهفة للديار والهُويـــة المسلوبة والأمل في استعادتهما. وكي نفهم ملامح التغيير التي تـــوحي بهـــا الثورة الحالية، على صعيد تبلور الهوية وتطورهـــا، علينـــا أن نعـــود إلـــى الاستمرارية التاريخية من خلال مرحلة ما قبل الاستقلال والمرحلة الدستورية.

ويفترض أن معنى من معاني الاستمرارية التاريخية مع هـــاتين المـــرحلتين الحاسمتين يعطينا ما نحسبه معنى للهوية الوطنية.

الهُوية والوحدة الوطنية

بادئ ذي بدء، إن الهوية الليبية تنبع أساساً من شعور قوي بالوحدة الوطنيـــة؛ وحدة حقيقية، وليست متخيلة. إن جغرافية ليبيا البشرية تعطينا الأسس الحقيقية للوحدة الوطنية، وهي تستمد قوتها من تصورين للمكان ينتج أحـــدهما عـــن الآخر، مثال ذلك نمط الاقتصاد الزراعي الرعوي السابق، والنظـــام الحـــالي للمدن المعتمد بعضها على بعض وظيفياً. ففي النظام القـــديم كـــان الرعـــاة الزراعيون يتنقلون بحرية على الأرض سعياً وراء الكلأ والماء، ولم يكونـــوا يعترفون بأية حدود تفصل بين أجزاء وطنهم. وفي النظام الحالي ولدت المدن والقرى من مختلف الأحجام من خلال نظام تراتبي متأصّل للأماكن المركزية، التي ثبت أنها تلعب دوراً أساسياً في مسألة الهوية وقامت كـــل منهـــا بـــدور البُوتقة التي ينصهر فيها السكان القادمون من كل مكان في ليبيا.

في الحقيقة لقد وجد الليبيون الفرصة للتعبير عن فهمهم المتميز لهـــذه الوحدة في ثلاث مراحل حاسمة خلال مائةِ السنة الأخيرة من تاريخهم، بـــدءاً من 1911 حتى 2011. وقد تجسد إدراكهم لمصيرهم المشترك بشكل واضح خلال ثلاثة عقود من النضال الموحد، سياسياً وعسكرياً، لتخليص بلادهم من حكم المحتل. لقد جاء المقاتلون من كل مكان: من المناطق الريفية والحضرية على طول ساحل المتوسط، وكذلك من قبائل البادية وســـكان الواحـــات فـــي مناطق الداخل. فقد مثلت هذه القبائل مصادر حيوية لتزويد قـــضية التحريـــر بالرجال المقاتلين.

ثم مثل إعلان الاستقلال وإنشاء الملكية الدستورية سنة 1951 بداية مرحلة جديدة من التطور السياسي والاقتصادي. والأهم من ذلك أن الوحدة الوطنية قد ترسخت وتم المحافظة عليها من خلال درجة عالية من الوعي السياسي بالمصير المشترك لدى المواطنين جميعاً. وانطلاقاً من وعي الليبيين بهويتهم كوحدة سياسية مستقلة، فقد توجوا تطورهم السياسي، في منتصف الستينيات، باستبدال نظام الحكم الفيدرالي (الذي كان يشمل الولايات الثلاث السابقة: طرابلس، برقة، فزان) بنظام دولة الوحدة.

أما الثورة الحالية فإنها تتحدث عن نفسها بكل وضوح. لقد شرع الليبيون في البحث من جديد عن الحرية واستعادة الهوية المفقودة والديمقراطية. فعلى الفور، منذ اللحظات الأولى لتفجر ثورة فبراير المجيدة، طغى على الجميع شوق عارم للراية الدستورية، رمز الاستقلال الوطني، فأخذت هذه الراية ترفرف في كل مكان، اعتزازاً، بلا أي شك، بتلك المرحلة التاريخية وبمنجزات الأجيال الماضية. ولا شك أن بروز العلم وانتشاره بشكل عجيب في كل مكان، بأعداد هائلة وبكل الأحجام، يعد مؤشراً لا تخطئه العين لإحساسهم بوحدة ليبيا وهوية سكانها.

إن المشهد الحضري التقليدي لمدينة بنغازي، على سبيل المثال، هو نتاج لمعنى من معانٍ تاريخةٍ، ومن ثَمَّ فإنه ينتهي إلى معنى من معاني الوحدة. إنه يحمل شهادات على مراحل من الازدهار، وأوقات من القنوط والنضال. وهكذا فإن الفقدان المادي لعدد من أهم آثاره وملامحه الحضرية خلال حكم الاستبداد، مثل هدم ضريح شيخ الشهداء عمر المختار ونقل رفاته، وهدم سوق الظلام، وتدمير عدد آخر من المكونات المعمارية للمدينة، لم يؤثر على

الإطلاق في معنى الهوية. وعلى كل حال هذا الفقدان لن يكون نهائياً، فكل هذه المعالم تبقى راسخة بعمق في ذاكرة الشعب الجمعية، وسوف يساهم استعادتها في دعم الهوية وترسيخ المكان.

لقد أشرت إلى أمثلة من مدينة بنغازي، ولكن الأمر نفسه ينطبق على غيرها من الأماكن، فالأمل القوي في استعادة الهوية الوطنية قد تجسد في مناطق حضرية أخرى على طول امتداد التراب الليبي، تختلف في أحجامها، من طرابلس، العاصمة الوطنية، حتى بلدة الجغبوب الصغيرة في عمق الصحراء، قرب الحدود المصرية. فهذه الواحة الصغيرة قد عانت بقسوة جراء الهدم المتعمد لمؤسستها التعليمية الشهيرة المعروفة؛ وجدير بالذكر أن الجغبوب كانت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنافس الأزهر الشريف في مجال التعليم الديني.

ودون الحاجة إلى الخوض في تفاصيل التطور التاريخي للمدن الأولى، يكفي القول إن اللبنات الأولى للإطار الحضري الحالي تمتد جذورها عميقاً في تاريخ ليبيا. ومن الأمثلة على تجمعات حضرية بنيت فوق مواضع مدن تعود للتاريخ القديم والوسيط أو بجوارها نذكر: طرابلس، بنغازي، شحات، صبراته، زوارة، مصراته، زليتن، الخمس، درنة، طبرق، المرج، سوسة، طلميثة، توكرة، دريانة، وغيرها من المدن المنتشرة في جبل نفوسة ومنخفضات الصحراء الجنوبية مثل زويلة، جرمة، مرزق، غدامس وغات. بعض المدن الأخرى، مثل سبها والزاوية والبيضاء فقد نمت كمراكز إقليمية مهمة في العصور الحديثة، بل إن البيضاء قد أصبحت في فترة ليست بعيدة عاصمة للبلاد، في حين أن بعض المراكز الحضرية الأخرى قد ظهرت كمنتج

طبيعي لأنشطة استثمار موارد النفط، مثل موانئ تصدير النفط: مرسى البريقة وراس لانوف والسدرة.

إن المتمعن في المشهد الحضري في ليبيا، ولو لـم يكـن ذا معرفـة واسعة بجغرافية ليبيا، سوف يلاحظ أن ذلك الانتشار الواسع للمواقـع التـي ذكرتها آنفاً يشير تقريباً إلى كل المدن والقرى المهمة، الكبيرة والصغيرة، التي تتكون منها ليبيا الحالية. وثمة استمرارية ملفتة للنظر توجـد بـين مكونـات الأنظمة الحضرية القديمة في المدن الخمس في جهة الشرق، والمدن الـثلاث في الغرب، ونظيراتها الحديثة التي نشأت في المواقع ذاتها. بالطبع واجهـت المراكز الحضرية القديمة جملة من الظروف غيـر الملائمـة مـن الجمـود والانهيار، ومع ذلك فإن الإطار العام للمشهد الحضري الذي ورثته ليبيا مـن تاريخها الماضي ظل في مجمله ثابتاً، وحافظ على نظامه المكاني الأصـلي. ولعل من أبرز علامات هذه الاستمرارية الإبقاء على الأسماء الأصلية لكثيـر من المدن والأقاليم معرّبة مُنذ الفتح الإسلامي. وإذا ما نظر إلى هذه المراكـز وظهيراتها باعتبارها نظاما مكانياً، فإنها تمثل مكونـات تراتبيـة حـضرية مرتبطة ببعضها البعض وظيفياً، كذا لعلها كانت كذلك في الماضي البعيد.

كيف إذن أسّست الجغرافيا للهوية والوحدة الوطنية وحفظتهما؟

إن ليبيا في مجملها عبارة عن كتلة صحراوية هائلة، تمتد عبر شمال أفريقيا. وهي بمساحتها التي تعادل مساحة مصر وتونس مجتمعتين مرة ونصف، وإذا ما أخذنا في الاعتبار انقسام السودان أخيراً إلى دولتين، أصبحت تعـد ثالـث أكبر دول أفريقيا مساحة، ولها أطول ساحل على البحر المتوسط فـي شـمال

أفريقيا، ومع ذلك فسكانها لا يتجاوزون نصف سكان تونس، وما يعادل 15/1 من سكان مصر.

إنَّ موقع ليبيا وسط شمال إفريقيا على امتداد ساحل البحر المتوسط أعطاها ميزة استراتيجية كبيرة مكنتها، قديماً وحديثاً من القيام بدور الرابط الجغرافي الهام بين أوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء الكبرى؛ كما مكّنها هذا الموقع الإستراتيجي من تكوين علاقات ثقافية وتجارية وسياسية على درجة كبيرة من الأهمية مع جاراتها، مصر والسودان وتونس والجزائر والنيجر وتشاد الواقعة على حدودها مباشرة.

يتوزع السكان في ليبيا على مراكز حضرية عديدة ومتناثرة، تحكمت في نشأتها ندرة الموارد المائية، التي تنحصر في المناطق الساحلية القريبة من الساحل وبعض المنخفضات الصحراوية القابلة للحياة. إنها أرض ممتدة، تتكون من سهول ساحلية وبعض الهضاب، ومن سهول داخلية تمتد بينها شبكة من الوديان الجافة، إلى جانب المنخفضات الصحراوية الشمالية والجنوبية التي تظهر فيها هنا وهناك بعض الواحات الآهلة بالسكان.

والعجيب أن ليبيا ليست متجانسة ثقافياً فقط، بل ينطبق نوع من التجانس الطبيعي على أجزائها المعمورة الرئيسة أيضاً. يمكننا الحديث عن الهضبتين المتناظرتين، الجبل الأخضر وجبل نفوسة، كما يمكننا الحديث عن السهلين المتماثلين سهل الجفارة وسهل بنغازي. هذه الإقاليم الأربعة شبه الجافة (باستثناء المصاطب والجروف العليا للجبل الأخضر التي تصنف شبه رطبة) تشكل أقل من 5% من مساحة الأراضي الليبية ولكنها تأوي ما يزيد على 90% من السكان.

في الشمال الشرقي هناك الجبل الأخضر، الذي أصفه "بالنتوء البرقاوي" بسبب شكله البارز الذي يحدد معالم سهل بنغازي ويحتضنه على نحو مناسب، وهو يتميّز بوفرة نسبية من الأمطار التي تجود بها الرياح الشمالية والشمالية الغربية في فصل الشتاء لتحفظ خُضرة طبيعية دائمة تغطي مصاطبه وجروفه. ومن ورائه وشرقه حتى الحدود مع مصر تمتد هضبة البطنان والدفنة التي تتوزع مدنها وبلداتها بصورة طولية منتظمة في تناغم مع مورفولوجية الهضبة وساحل البحر شمالا والصحراء جنوباً. في حين نجد في الغرب جبل نفوسة الذي يحدد بدوره سهل الجفارة ويحتضنه، موفراً بذلك مانعاً طبيعاً يحفظ طراوة السهل من مؤثرات الصحراء القاسية.

تبدأ الكتلة الحجرية لجبل نفوسة من نقطة بالقرب من الخمس على ساحل المتوسط، حوالي مِئة كيلومتر إلى الشرق من طرابلس، وتمتد في اتجاه الجنوب الغربي حتى تنتهي في الأراضي التونسية. وتضم المستوطنات في جبل نفوسة عدة مدن، باتت أسماؤها أكثر ألفة منذ اندلاع الثورة، مثل يفرن ونالوت وجادو والزنتان والرجبان وكاباو والقواليش وككلة والقلعة والرحيبات والأصابعة وتيجي ونقطة الحدود وازن. وقد كانت بعض هذه المدن والقرى، المحتمية بمواقعها في الجبل من أوائل المناطق التي التحمت بالثورة.

وكلتا البيئتين الطبيعيتين، السهلين والجبلين، يحتضنان أربعة أخماس مُدن ليبيا وسكانها، والخُمس الآخر موزّع على المناطق الساحلية الوسطى والمناطق الجنوبية. ومن هنا فإن ليبيا تشبه مصر، التي يتركز قُرابة 95% من سكانها على امتداد الشريط الضيق لوادي النيل، وهِبته الأبدية (الدلتا). ومع ذلك، فعلى العكس من وادي النيل الطويل المتواصل والدلتا ذات الشكل

المتراص، فإن هضبتي ليبيا العامرتين وسهليها الكبيرين شبه المثلثين بعيدان أحدهما عن الآخر.

إن المنطقتين الجبليتين اللتين تبرزان في شمال ليبيا، ويتصل بهما السهلان الساحليان، لهما تقريباً نفس الامتداد والارتفاع، ولكِلْتَيْهما أهمية استراتيجية، فقد ثبت أن مرتفعات الجبل الأخضر كانت لها أهمية حيوية خلال العقدين من الزمن ما بين 1911-1931، اللذين شهِدا النضال الليبي ضد حكم المحتل الإيطالي في شرق البلاد تزامناً مع الكفاح الموحّد الذي كان يقوم به سكان وسط ليبيا وغربها وجنوبها. كما أن قوات الحلفاء استفادت فائدة كبيرة من الطبيعة الجغرافية للجبل الأخضر وامتداده في هضبة البطنان، في هزيمة قوات المحور في شمال أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية.

وقد شاهدنا أراضي جبل نفوسة الوعرة تلعب دوراً مشابهاً لا يقل بطولة في الحرب الأخيرة التي أُجبر الليبيون على خوضها من أجل استقلال ليبيا الثاني من النظام القمعي المنهار. فقد وفّر هذا الجبل الأشم مَنْفَذاً ورقابة على خطوط الإمدادات في الجنوب، وخاصة نقطة الحدود في غدامس مع الجزائر وتونس من جهة، ومن جهة أخرى نقطة الحدود الأخرى مع الجزائر عبر غات في إقليم فزّان.

وعلى الرغم من أن مسافة ألف وخمسمائة كليومتر تفصل بين الهضبتين والسهلين من منتصفهما، إلا أنهما لم يكونا أكثر ترابطاً سياسياً وعسكرياً كما كانا خلال ثورة السابع عشر من فبراير المجيدة المجيدة، فقد ظل التواصل الاجتماعي والسياسي، وكذلك الإمدادات العسكرية والعمليات

على جبهات القتال، تسير بطريقة سلسة بين مُدنِ جانبي البلاد وبلْداتها علـــى الرغم من وجود قوات القذافي بينهما.

بنية النظام الحضري

سوف أتحدث قليلا عن النظام الحضري بوصفه مؤشراً قوياً علـــى مرونـــة الشعب الليبي حيث جسّد بكل وضوح فكرة الوحدة الوطنية ومثّل أهم دعائمها. لقد كان من أهم الحقائق حول تحول المجتمع الليبي منذ الاستقلال نحو الـــنمط الحضري؛ إذ توجه الليبيون بشكل كثيف نحو المدن، دون النظر إلى أصولهم إن كانت حضرية أو ريفية. وكان هذا يرجع أساساً إلى التجانس الاقتـــصادي الاجتماعي/الثقافي الملفت للنظر الذي يربط بينهم. فلم يكن ثمة انقـــسام بـــين المدينة والريف، ولم تكن المدن على الإطلاق مناطق منغلقة على نفـــسها، أي enclaves كما يُشار إلى هذه الحالة بالمصطلح الإنجليزي. فالواقع أن المدن والقرى ظلت مترابطة فيما بينها اجتماعياً وثقافياً ووظيفياً، ومن ثم فقد كانـــت تمسك بمفتاح الهوية الوطنية والوحدة.

النتيجة أن ليبيا تعد البلد الأكثر تحضراً في أفريقيا، وربما من أكثـــر الدول تحضراً في العالم كله. إنّها، بحق، أمّة من المدن. فعبر تاريخه الحديث كله، بدءاً من نهاية الحرب العالمية الثانية، مروراً بمرحلة الاستقلال التي تلتها على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين، أخذ المجتمع الليبـــي يتـــشكل بثبات وخطى حثيثة في نمط حضري وظيفي، ربما يكون قـــد بلـــغ مـــستوى النضج، وإن كان بمعايير الدول النامية، بحلول القرن الواحد والعـــشرين، إذ أصبحت الغالبية العظمى من السكان يقطنون في تجمعات حـــضرية. وعلـــى الرغم من رقعة البلاد الشاسعة، وانخفاض الكثافة السكانية، فإن مـــدن الـــبلاد

وقراها كانت دائماً متصلة فيما بينها اجتماعياً وثقافياً ووظيفياً، لا باعتبارهـا وسيلة اقتصادية معاشية فحسب، ولكن من حيث إنها مصدر هويـة لمجتمـع متحرك، يتنقل بحرية وباستمرار من مكان إلى آخر، بحثاً عن فرصة العمـل والحياة المدنية. وبالطبع قامت المراكز الحضرية التقليدية: طرابلس وبنغازي ومصراته ودرنه بدور المحور للأنشطة الاقتصادية، التي نشأت بفعل صناعة النفط. هذه المدن وغيرها المنتشرة على امتداد مساحة البلاد الشاسعة، مثلـت أيضاً بُوتقة انصهر فيها السكان الذين كانوا يعيشون حياة البادية والمهـاجرين إليها من التجمعات الصغيرة والزراعية.

والحقيقة أننا شاهدنا في الأيام العظيمة الأولى لثورة الشعب كيـف أن الوحدة الوطنية قد برزت بوضوح من خلال مظاهر التكافل والاتحـاد التـي يحس بها الجميع في كل المدن. فعلى سبيل المثال، عندما انطلقت شرارة ثورة فبراير في بنغازي، ثاني مدن البلاد، ترددت أصداؤها على الفور فـي بلـدة الزنتان الصغيرة في أقصى منطقة جبل نفوسة، وسرعان ما انعكست خـلال يومين على سائر التجمعات السكانية، بصرف النظر عن أحجامها ومواقعهـا. بل إن المدن، حتى وهي تعاني من الحصار الخانق المفروض عليها، أثبتـت أنها متصلة بعضها ببعض، وأن بعضها يعتمد على بعض، وأنها قادرة علـى توفير الدعم الحيوي فيما بينها. ومن ثَمَّ فقد كان خط الدفاع عن مدينة بنغازي، القلعة الحصينة لثورة فبراير، لا ينتهي عند البوابة الغربية لإجـدابياً البطلـة، ولكنه يمتد حتى مصراته المنيعة، والزنتان والزاوية الباسلتين وغيرها كثيـر من المدن والقرى في معظم المناطق الغربية من البلاد.

إن هذا التوزيع التراتبي لمكونات الإطار الحضري على اتساع الإقليم المعمور هو أيضاً نتاج الجغرافيا، كما هو نتاج التاريخ. ذلك أن الخصائص الطبيعية لليبيا تتميز غالباً بعدم وجود أرض وعرة، على الرغم من أنه توجد في الشريط الساحلي شرقاً وغرباً أراضي مرتفعة قليلاً نسبياً[3] تتوازى مع خط الساحل، وهذا يصب في صالح التواصل بين مكونات النظام الحضري. إضافة إلى ذلك فإن عدم وجود أجزاء متميزة ثقافياً داخل حدودها، وعدم وجود أية مناطق ليبية خارج الحدود، وأن المدن وما يرتبط بها من أرياف ليست ذات طبيعة متنافرة، يدعم فكرة أن المدن والقرى ومجالاتها الحيوية كانت دائماً مترابطة فيما بينها وظيفياً واجتماعياً، وكانت داعمة لبعضها البعض.

لقد أكدت على فكرة النظام الحضري، واعتمدت عليها لتأكيد الوحدة المكانية للتراب الليبي، وهي وحدة وجدت في الأزمنة الماضية، وبقيت، ظاهراً وباطناً، حتى العصور الحديثة. ومن هنا فإن ذلك الانفصام بين الشرق والغرب الذي ربما وجد خلال فترة التنافس الإغريقي والفينيقي، تم في الواقع إنهاؤه بواسطة الرومان الذين حكموا أرضاً موحدة، بل غامروا أيضاً بالتوغل إلى مناطق الدواخل وسهّلوا ارتباطها بالمناطق الساحلية. وبدءاً من منتصف القرن السابع الميلادي انتشر نموذج المدينة الإسلامية علـى طَـوَال الأرض الليبية، التي شيدت فوق المراكز الحضرية القديمة، أو بنيت بجوارها. بعد ذلك التاريخ بحوالي ألف عام حكم العثمانيون (1551–1911) أرضاً موحدة، وعندما احتل الإيطاليون ليبيا سنة 1911، استعمروا هم أيضاً أرضاً موحدة، وتبنوا تسميتها الجيوسياسية. ولا شك أن ليبيا الحديثة كانت تمتلك المعايير اللازمة للحفاظ عليها موحدة.

ولعلنا لا نحتاج إلى التذكير بأن هذه اللمحة عن النظام الحضري في ليبيا لم يكن يراد بها أن تكون شاملة كاملة، وإنما كان القصد من ورائها إثارة المزيد من النقاش والتأمل في صلب النظام الجغرافي الذي يؤثر في التفاعل البشري في كل مكان وزمان. وكي نفهم جيداً الإطار الحضري لليبيا في الوقت الحاضر، ومن ثَمَّ وحدتها الترابية، فإن علينا أن ندرس بعمق التجربة الحضرية الماضية، وأن ننظر إليها باعتبار أنه من الممكن أن تمثل الأساس لأية تنمية مكانية قادمة.

الصحراء

الصحراء، بمنخفضاتها الواسعة، تشكّل مناطق جذبٍ لسكانها وروادها من سائحين وباحثين ورحّالة وغيرهم ممن يعملون فيها، بما توفِّره من موارد بشرية وظواهر طبيعية في غاية التباين والاختلاف. أودية الصحراء العامرة احتضنت محطات القوافل القديمة ووفرت حطاياها الأمن والأمان لقاطنيها وزوارها وتجار القوافل الصحراوية في الماضي، رابطة بمواقعها الاستراتيجية بين الحمادة والرمال مدن الساحل الليبي بأواسط افريقيا. والآن نراها تقوم بدور مماثل لا يقل أهمية عن سابقه، وهي تتدرج في عُقد من الأماكن المركزية المتفاعلة ضمن المنظومة الحضرية الوطنية.

جانب آخر هام من جوانب البيئة الصحراوية يتمثل في حياة مُدن وواحات الصحراء العامرة. هذه المرافئ الرائعة بمائها العذب الغزير وغابات نخيلها وانتاجها من التمور الطيبة وطِراز بنائها التقليدي الذي يذكِّر المرء بالنمط المندثر، أو وشيك الاندثار، للمدينة الإسلامية المتناغِمة مع بيئتها، كل

ذلك وغيره من كرم خِصال أهلها وعَفْويتهم يجعل واحاتنا محاطّ أمان للمسافر والرحّالة الذي تستهويه الصحراء بسحرها ودفئها.

الصحراء مُتحفٌ كبيرٌ مفتوحٌ تجِب المحافظة عليه واستثماره بشكل مُستدام، كما يجب أن يكون هذا المُتحف المفتوح منطلقاً للدراسة والمعرفة بما يوفره من مجال خَصِب لشتى فروع العلم، ولمُحبي الإطلاع والتعرّف على هذا النوع من البيئات الفريدة وصِفاتها الجيولوجية والطبوغرافية وأنماط التعرية في صخورها ومنخفضاتها وجبالها ووديانها وخصائص ما يعيش فيها من نبات وحيوان. إنه أيضاً جزء هام من العالم المُختَبَر، عالم الإدراك الحسي الذي يجد فيه الشاعِر مبعثاً لصور جميلة يقدح بها خياله الشِعري، كما يجد فيه الباحث الفينومينولوجي (الظاهِراتي) مادته الأولية التي يرى من خِلالها تجليّات الفِعل الإنساني وإحداثه "للمكان" في صورته الأصيلة.

خاتمة

إن على الليبيين أن يعلنوا الآن عن رؤية جديدة. هذه الرؤية يجب أن تتصل بتجربتنا الديمقراطية الماضية، التي خضناها كأمة في فجر الاستقلال، وكانت تتعلق بها كل آمالنا. وعلى كل حال فإن مجرد التعلق العاطفي بالهوية الوطنية لن يكون كافياً. فإن الرؤية الجديدة يمكن أن تستلهم أيضاً من إحساس مرهف بالمكان الذي اكتسبته الأمة من تجربتها الإنسانية، ولا سيما تلك الصورة التي افتقدت ثم وجدت من جديد لمدننا. فهذه المدن والقرى، وهي تستعيد هوياتها، تحاول أن تعيد موضعة نفسها، باحثة عن صور سابقة، في محاولتها بناء صور أخرى في أنماط جديدة.

إن ما حدث خلال أربعة العقود الماضية لا يعكس القيم ولا الشعور الوطني لدى الشعب الليبي. ففي الحقيقة إن ما يحدث الآن يؤكد لنا أن روح الأمة لم تنكسر على الإطلاق، على الرغم من الانحطاط الذي تعرضت له خلال أربعة عقود من الحكم الاستبدادي، الذي كان يهدف إلى تحطيم كرامتنا والانحدار بنا إلى حالة من الفوضى. فهذه العقود البائسة لم تفلح في اقتلاع إحساسنا بالهوية الأصيلة. كما أن حركة التغيير في ليبيا لم يعد ممكنا أن تعود إلى الخلف، فالليبيون الأحرار فخورون بوطنهم وقد نجحوا في استعادة إحساسهم بوحدة المصير، وما أنجزوه في حرب التحرير الثانية واستعادة الوطن والهُوية الأصيلة يعكس إدراكهم لطبيعة بلادهم الجغرافية ومهارة في استثمارها على النحو الأكمل[4].

الهوامش

i ــ محاضرة عامة ألقيت بمدرّج سناء محيدلي بكلية الطب، جامعة بنغازي، ضمن ندوة نظمتها الجمعية الليبية لأصدقاء اللغة العربية عن "ليبيا ... اللغة والهوية والوحدة". بنغازي: 22 أبريل 2012.

ii ــ قام الأستاذ الفاضل الدكتور يونس فنوش بنقل بِضع من تلك المقالات إلى لغتنا العربية الخلاّقة ما جعل الترجمة تتفوق على الأصل، فله جزيل شكري مجدداً.

iii ــ يقل ارتفاع أعلى أجزاء الجبل الأخضر وجبل نفوسة عن 900 متر فوق مستوى سطح البحر.

iiii ــ مقالات الكاتب الأصلية باللغـة الإنجليزيـة مرتبـة حسـب تـاريخ صدورها:

Mansour Elbabour (4/5/ 2011), "Libya: a nation of cities".

http://english.libya.tv/2011/05/04/a-nation-of-cities-united/

______________ (14/5/2011), "How geography and history enhanced unity in Libya"

http://english.libya.tv/2011/05/14/how-did-geography-and-history-enhance-unity-in-libya-2/

______________ (01/06/2011), "Restoration of a lost identity".

http://english.libya.tv/2011/06/01/restoration-of-a-lost-identity/

______________ (26/07/2011), "Plain and Plateau Country".

http://english.libya.tv/2011/07/26/plain-and-plateau-country/

وجميعهـا منـشورة علـى الموقـع الالكترونـي التـالي: http://works.bepress.com/mansour_elbabour/